العالم ومكون له ، وامتناع إطلاق اسم المشتق على الشيء من غير أن يكون مأخذ الاشتقاق وصفًا له قائمًا به ، فالتكوين ثابت له أزلاً وأبدًا ، والمكوَّن حادث بحدوث التعلق كما فى العلم والقدرة وغيرهما من الصفات القديمة التى لا يلزم من قِدَمها قِدَم متعلقاتها لكون تعلقاتهما حادثة .

ثم الإمام أتى ببعض الصفات الذاتية والفعلية دون غيرها من النعوت العلية لأن معرفة هذه الصفات الشهيرة الجلية تكفى المؤمن فى معرفة وجود الله وصفاته البهية ، هذا وقد قال فخر الإسلام على البزدوى فى «أصول الفقه» : وأما الإيمان والإسلام فإن تفسيرهما التصديق والإقرار بالله سبحانه كما هو بصفاته وأسمائه ، وقبول أحكامه وشرائعه ، وهو نوعان : ظاهر ينشئه بين المسلمين ، وثبوت حكم إسلامه تبعًا لغيره من خير الأبوين ، وثابت بالبيان ، وأن يصف الله تعالى كما هو إلا أن هذا كمال يتعذر شرطه ، لأن معرفة الخلق بأوصاف الحق متفاوتة فى مقام التفسير وحال التعبير ، وإنما شرط الكمال بما لا حرج فيه ولا محال ، وهو أن يثبت التصديق والإقرار بما قلنا إجمالاً ، وإنْ عجز عن بيانه وتفسيره إكمالاً ، ولهذا قلنا : إن الواجب أن يستوصف المؤمن فيقول : أهو كذا أى الله سبحانه وتعالى يوصف بكذا ونعت كذا من الصفات الثبوتية والسلبية والنعوت الذاتية والفعلية ؟ فإذا قال : نعم ، فقد ظهر كمال إسلامه ، وتبين غاية مرامه ، وأما من استوصف فجهل ليس بمؤمن ، ولذا قال محمد رحمه الله فى « الجامع الكبير» فى الصغيرة بين أبوين مسلمين : إذا لم تصف الإسلام حتى أدركت[1] فلم تصف أنها تَبِين من زوجها .

صفات الله وأسماؤه كلها أزلية :

[**لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته**] أى موصوفًا بنعوت الكمال ، ومعروفًا

---

(١) أى صارت راشدة عاقلة .

بأوصاف الجلال والجمال [**لم يحدث له اسم ولا صفة**] يعنى أن صفات الله وأسماءه كلها أزلية لا بداية لها ، وأبدية لا نهاية لها ، لم يتجدد له تعالى صفة من صفاته ولا اسم من أسمائه ، لأنه سبحانه واجب الوجود لذاته ، الكامل فى ذاته وصفاته ، فلو حدث له صفة ، أو زال عنه نعت لكان قبل حدوث تلك الصفة وبعد زوال ذلك النعت ناقصًا عن مقام الكمال ، وهو فى حقه سبحانه من المحال ، فصفاته تعالى كلها أزلية أبدية .

وههنا سؤال مشهور وهو أنه قد ورد الإخبار فى كلامه سبحانه بلفظ المُضِيّ كثيرًا نحو قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا** ﴾ [نوح:١] ﴿ **وَقَالَ مُوسَىٰ** ﴾ [الأعراف:١٠٤ ، ١٤٢] ﴿ **فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ**﴾ [المزمل:١٦] والإخبار بلفظ الماضى عما لم يوجد بعد كذب ، والكذب عليه محال، وله جواب مسطور ، وهو أن إخباره تعالى لا يتصف أزلاً بالماضى والحال والاستقبال لعدم الأمان ، وإنما لا يتصف بذلك فيما لا يزال بحسب التعلقات ، فيقال : قام بذات الله تعالى إخبار عن إرسال نوح مطلقًا ، وذلك الإخبار موجود أزلاً باق أبدًا ، فقبل الإرسال كانت العبارة الدالة عليه إنا نرسل ، وبعد الإرسال إنا أرسلنا ، فالتغيّر فى لفظ الخبر لا فى الإخبار القائم بالذات ، وهذا كما تقول فى علمه تعالى : إنه قائم بذاته سبحانه وتعالى أزلاً العلم بأن نوحًا مرسل وهذا العلم باق أبدًا ، فقبل وجوده علم أنه سيوجد ، وبعد وجوده علم بذلك العلم أنه وجد وأرسل ، والتغيّر فى المعلوم لا فى العلم .

[**لم يزل عالمًا بعلمه**] أى بعلمه الذى هو صفته الأزلية لا بعلم لاحق يلزم منه جهل سابق ، وهذا معنى قوله : [**والعلم صفته فى الأزل**] يعنى وما ثبت قدمه استحال عدمه ، فعلمه أزلى أبدى منزه عن قبول الزيادة والنقصان بخلاف علوم أرباب العرفان .

[**قادرًا بقدرته**] أى: بقدرته التى هى صفته الأزلية لا بقدرة حادثة فى الأمور

الكونية [**والقدرة صفته فى الأزل**] وكذا نعته فى المستقبل .

[**متكلمًا بكلامه**] أى الذاتى القدسى .

[**والكلام**] أى النفسى [**صفته فى الأزل وخالقًا بتخليقه والتخليق صفته فى الأزل وفاعلاً بفعله والفعل**] أى « فعله » كما فى نسخة [**صفته فى الأزل**] يعنى إذا خلق شيئًا ابتداء ، وفعله فعلاً انتهاء ، فإنما يخلقه ويفعله بفعله الذى هو صفته الأزلية ، لا بفعل حادث ووصف حادث عند خلقه وفعله ، إذ لا يحدث له علم ولا قدرة ولا خلق ولا فعل بحدوث المعلوم والمقدور والمخلوق والمفعول ، وهذا معنى قوله : [**والفاعل هو الله تعالى**] أى : لا شريك له فى فعله وصنعه وحكمه وأمره [**والفعل صفته فى الأزل والمفعول مخلوق**] أى : حادث عند تعلق فعله سبحانه به [**وفعل الله تعالى غير مخلوق**] أى : ليس بحادث ، بل هو قديم كفاعله إذ لا يلزم من كون المفعول مخلوقًا كون الفعل مخلوقًا ، وفى كلام الإمام إيماء إلى أنه لو كان فعل الله مخلوقًا لزم تعدد الخالق ، وقد ثبت أن الله سبحانه خالق كل شىء ، فله سبحانه التوحيد الذاتى الصفاتى والفعلى .

وأغرب ابن المهام حيث ذهل عن هذا الكلام فقال : وليس فى كلام أبى حنيفة تصريح بأن صفة التكوين قديمة زائدة على الصفات المتقدمة سوى ما أخذه المتأخرون من قوله : كان الله تعالى خالقًا قبل أن يَخلق ورازقًا قبل أن يَرزق، هذا والأشاعرة يقولون : ليست صفة التكوين سوى صفة القدرة باعتبار تعلقها بمتعلق خاص ، فالتخليق هو القدرة باعتبار تعلقها بالمخلوق ، وكذا الترزيق ، ويقولون : صفات الأفعال حادثة ، لأنها عبارة عن تعلقات القدرة والتعلقات حادثة .

قال ابن الهمام : وما ذكره مشايخ الحنفية فى معنى التكوين من أنها صفات تدل على تأثير لا ينفى قول الأشاعرة ، ولا يوجب كون صفة التكوين على فصولها صفات أخرى لا ترجع إلى القدرة المتعلقة والإرادة المتعلقة ، بل فى كلام

أبي حنيفة ما يفيد أن ذلك على ما فهم الأشاعرة من هذه الصفات على ما نقله الطحاوى عنه حيث قال : وكما كان بصفاته أزليًا كذلك لا يزال عليها أبديًا ، ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ، ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارى، بل له معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالقية ولا مخلوق ، كما أن محيى الموتى استحق هذا الاسم قبل إحيائهم ، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم ذلك بأنه على كل شيء قدير ، انتهى . فقوله ذلك بأنه على كل شيء قدير تعليل وبيان لاستحقاق اسم الخالق قبل المخلوق ، فأفاد أن معنى الخالق قبل الخلق. واستحقاق اسم الخالق بسبب قيام قدرته تعالى على الخلق ، فاسم الخالق ولا مخلوق فى الأزل لمن له قدرة الخلق فى الأزل ، وهذا ما يقوله الأشاعرة ، انتهى. وفيه أن المفهوم لا يعارض المنطوق المعلوم .

[**وصفاته فى الأزل غير محدثة ولا مخلوقة**] تأكيد وتأييد أو غير محدثة بإحداثه ولا مخلوقة بخلق غيره [**فمن قال : إنها مخلوقة أو محدثة أو وقف فيها**] أى بأن لا يحكم بأنها قديمة أو حادثة ويؤخر طالب معرفتها ، ولا يقول : آمنت بالله وصفاته على وفق مراده [**أو شَكَّ فيها**] أى تردد فى هذه المسألة ونحوها سواء ، يستوى طرفاه أو يترجح أحدهما [**فهو كافر بالله**] أى ببعض صفاته ، وهو مكلف بأن يكون عارفًا بذاته وجميع صفاته ، إلا أن الجهل والشك الموجبين للكفر مخصوصان بصفات الله المذكورة من النعوت المسطورة المشهورة ، أعنى الحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة والتخليق والترزيق .

القرآن كلام الله غير مخلوق ولا حادث :

[**والقرآن**] أى : المنعوت بالفرقان المنزل على عين الأعيان ، وزين الإنسان إلا أن المراد به هنا كلامه النفسى ، ونعته الإنسى ، وهذا الإطلاق لأن معناه يفهم بواسطة مبناه ، المعنى أن كلامه سبحانه الذى نعته المعظم شأنه [**فى المصاحف مكتوب**] أى بأيدينا بواسطة نقوش الحروف وأشكال الكلمات [**وفى القلوب**

محفوظ] أي نستحضره عند تصور المغيبات بألفاظه المتخيلات [**وعلى الألسن مقروء**] أي : بحروفه الملفوظة المسموعة ، كما هو ظاهر في المشاهدات ، وهذا من قولهم : المقروء قديم ، والقراءة حادثة .

فإن قيل : لو كان كلام الله تعالى حقيقة في المعنى القديم ، مجازاً في النظم المؤلف ، لصح نفيه عنه بأن يقال : ليس النظم الأول المعجز المفصل إلى السور والآيات كلام الله ، والإجماع على خلافه .

قلنا : التحقيق أن كلام الله تعالى اسم مشترك بين الكلام النفسي القديم ومعنى الإضافة كونه صفة له تعالى وبين اللفظي الحادث المؤلف من السور والآيات، ومعنى الإضافة أنه مخلوق الله تعالى ليس من تأليفات المخلوقين ، فلا يصح النفي أصلاً ولا يكون الإعجاز والتحدي إلا في كلام الله ، ويتفرع عليه قولنا : يحرم للمحدث مس القرآن وأمثاله .

[**وعلى النبي عليه السلام منزل**] بالتخفيف والتشديد وهو الأولى لنزوله مدرجًا ومكررًا ، والمعنى أنه نزل عليه بواسطة الحروف المفردات والمركبات ، وفي الحالات المختلفات ، وهذا معنى قوله سبحانه : ﴿ **مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢] أي : محدث في الإنزال وإلا فكلامه النفسي منزه عن الانتقال .

[**ولفظنا بالقرآن مخلوق وكتابتنا وقراءتنا له مخلوقة**] وهذا كالتأكيد لقوله : لفظنا، ولا يبعد أن يراد بالقراءة تصور مبانيه أو تقدير معانيه من غير التلفظ بما فيه، ولعله لهذا المعنى لم يقل وحفظنا له مخلوق ، وذلك لأنها كلها من أفعالنا، وفعل الخلق مخلوق [**والقرآن**] أي : كلامه النفسي ونعته القدسي [**غير مخلوق**] أي ولا حال في المصاحف وغيرها ، وذلك أن كل من يأمر وينهى ويخبر عما مضى يجد في نفسه معنى يدل عليه بالعبارة أو يشير إليه بالكتابة أو الإشارة .

ثم اعلم أن مذهب الأشعري أنه يجوز أن يسمع الكلام النفسي أي بطريق

خرق العادة ، كما نبه عليه الباقلانى ، ومنعه الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائينى، وهو اختيار الشيخ أبو منصور الماتريدى ، فمعنى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة:٦] يسمع ما يدل عليه ، فموسى عليه الصلاة والسلام سمع صوتًا دالاً على كلامه سبحانه ، لكن لما كان بلا واسطة الكتابة والمَلَك بل على طريق خرق العادة خص باسم الكليم كما يدل عليه قوله تعالى : ﴿ نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ ﴾ [القصص: ٣٠] وسيأتى زيادة تحقيق لهذا المرام فى كلام الإمام ، وقد قال الإمام فى كتابه « الوصية » : نقر بأن القرآن كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله وصفته ، لا هو ولا غيره ، بل هو صفته على التحقيق ، مكتوب فى المصاحف ، مقروء بالألسن ، محفوظ فى الصدور ، غير حال فيها ، والحروف والحركات والكاغد ، والكتابة كلها مخلوقة ، لأنها أفعال العباد ، وكلام الله تعالى غير مخلوق ، لأن الكتابة والحروف والكلمات والآيات كلها آلة القرآن لحاجة العباد إليها ، وكلام الله تعالى قائم بذاته ، ومعناه مفهوم بهذه الأشياء ، فمن قال بأن كلام الله تعالى مخلوق فهو كافر بالله العظيم ، والله تعالى معبود ، ولا يُزال عما كان ، وكلامه مقروء ومكتوب ومحفوظ من غير مزايلة عنه ، انتهى .

وقال فخر الإسلام : قد صح عن أبى يوسف أنه قال : ناظرت أبا حنيفة فى مسألة خلق القرآن ، فاتفق رأيى ورأيه على أن من قال بخلق القرآن فهو كافر ، وصح هذا القول أيضًا عن محمد وقد ذكر المشايخ أنه يقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولا يقال القرآن غير مخلوق لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلَّف من الأصوات والحروف قديم ، كما ذهب إليه جهلة بعض الحنابلة ، وأمّا ما فى «شرح العقائد» (١) من أنه عليه الصلاة والسلام قال : (القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ومن قال : إنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم) (٢) فهو لا أصل له

---

(١) للإمام التفتازانى .

(٢) باطل : أخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخه (٢/ ٣٨٩) ف ى تحذير الخواص (١٤٧) =

كما بينت فى تخريج أحاديثه ، ثم تحقيق الخلاف بيننا وبين المعتزلة يرجع إلى إثبات الكلام النفسى ونفيه ،وإلا فنحن لا نقول بقدم الألفاظ والحروف وهم لا يقولون بحدوث الكلام النفسى ، ودليلنا ما مر أنه ثبت بالإجماع وتواتر النقل عن الأنبياء عليهم السلام أنه متكلم ، ولا معنى له سوى أنه متصف بالكلام ، ويمتنع قيام اللفظى الحادث بذاته الكريم ، فتعين النفسى القديم .

وأما استدلالهم بأن القرآن متصف بما هو من صفات المخلوق ، وسمات الحدوث ، من التأليف والتنظيم والنزول والتنزيل ، وكونه عربيًا مسموعًا فصيحًا معجزًا إلى غير ذلك ، فإنما يقوم حُجة على الحنابلة لا علينا ، لأنا قائلون بحدوث النظم وإنما الكلام فى معنى القديم ، والمعتزلة لما لم يمكنهم إنكار كونه متكلمًا ذهبوا إلى أنه متكلم بمعنى موجد الأصوات والحروف فى محالها ، وأشكال الكتابة فى اللوح المحفوظ ، وأنت خبير بأن المتحرك من قامت به الحركة لا من أوجدها ، وأما إذا كان فى الآية قراءتان فإن كان لكل قراءة معنى غير الأخرى ، فالله تعالى تكلم بهما جميعًا وصارت القراءتان بمنزلة الآيتين ، وإن كانت القراءتان معناهما واحد فالله تعالى تكلم بأحدهما ورخص بأن يقرأ بهما جميعًا كما ذكره الفقيه أبو الليث. فاعلم أن الصحابة والتابعين وغيرهم من المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين ، قد أجمعوا على أن كل صفة من صفات الله تعالى لا هو ولا غيره ، كذا ذكره شارح ، والمعنى أنه لا هو بحسب المفهوم الذهنى ، ولا غيره بحسب الوجود الخارجى ، فإن مفهوم الصفات غير مفهوم الذات إلا أنها لا تغايرها باعتبار ظهورها فى الكائنات .

= والأسرار المرفوعة لعلى القارى (٥٧) وتذكرة الموضوعات للفتنى(٧٧) وذكره الشوكانى فى الفوائد المجموعة (٣١٣) وقال البخارى فى خلق أفعال العباد : وتواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ أن القرآن كلام الله وأن أمر الله قيل مخلوقاته: قال ولم يّذكر عن أحد من المهاجرين والأنصار والتابعين خلافُ ذلك ، وهم الذين أدُّوا إلينا الكتاب والسنة قرنًا بعد قرن . وروى عن يحيى بن أبى طالب أنه قال: من زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر انظر كشف الخفاء للعجلونى (٢/ ٨٧)

والحاصل أن كلامه من صفاته ، وهو قديم بذاته وصفاته ، والقديمية مستلزمة للبقائية ، لأن ما ثبت قدمه يستحيل عدمه كما هى مستفادة من قوله تعالى : ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾ [الحديد: ٣] أى بلا ابتداء ولا انتهاء ، وأما القديم فليس من الأسماء الحسنى وإن أطلقه عليه علماء الكلام مع أنه أنكره كثير من السلف الكرام ، وكذا بعض من الخلف الفخام ومنهم ابن حزم ذهابًا إلى الجزم بأن القديم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن هو المتقدم على غيره ، فيقال : هذا قديم للعتيق ، وهذا حديث للجديد، لا القِدم الذى لا يسبقه العدم ، ففى التنزيل قوله تعالى : ﴿ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩] قيل : وهو الذى يبقى إلى حين وجود العرجون الثانى ، فإذا وجد الجديد قيل للأول قديم ، وقوله : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[الأحقاف: ١١] أى : متقدم فى الزمان ، ثم لا ريب فيه أنه إذا كان مستعملاً بمعنى المتقدم فمن تقدم على الحوادث كلها فهو أحق بالتقدم من غيره ، لكن أسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى التى تدل على خصوص ما يمدح به ، والتقدم فى اللغة مطلق لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها فلا يكون من الأسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه الأول وهو أحسن من القديم ، لأنه يشعر بأن ما بعده آيل إليه متابع له ، بخلاف القديم ، إلاَّ أنه لما كان سبحانه هو الفرد الأكمل فى معنى القديم المتناول للأول فأطلقه المتكلمون عليه ، فتأمل .

ثم القيوم يدل على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظ القديم ، ويدل أيضًا على كونه موجودًا بنفسه ، وهو معنى كونه واجب الوجود ، ولهذا المبنى المشتمل على حقائق المعنى قيل : الحى القيوم هو الاسم الأعظم ، ويؤيده ما صح عنه ﷺ : « أن قول الله : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أعظم آية فى القرآن »(١) ويقويه أن هذين الاسمين مدار الأسماء الحسنى كلها ، وإليهما يرجع جميع معانيها ، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال ، فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة ، فإذا كانت حياته أكمل حياة وأتمها استلزمه إثباتها إثبات كل

(١) صحيح : أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٢٥٨) .

كمال يضاهيه كمال الحياة ، وأما القيوم ، فهو متضمن كمال غناه ، وكمال قدرته، وافتقار غيره إليه فى ذاته وصفاته إيجاداً وإمداداً ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته ، فانتظم هذان الاسمان صفات الكمال على الوجه الأتم . فلا يبعد أن يكونا الاسم الأعظم ، والله سبحانه أعلم .

وما ذكره الله تعالى فى القرآن أى المنزل والفرقان المكمَّل **عن موسى وغيره من الأنبياء** أى إخباراً منهم أم حكاية عنهم **وعن فرعون وإبليس** أي ونحوهما من الأعداء الأغبياء ، وفى تخصيص موسى عليه السلام إيماء إلى أنه صاحب التكليم والكلام ، وفى تقديم فرعون إشعار بأنه فى مقام التلبيس أقوى من إبليس ، وفيه رد على ابن العربى [1] ومن تبعه كالجلال الدوانى وقد ألفت رسالة مستقلة فى تحقيق هذه المسألة ، وبينت ما وقع لهم من الوهم فى المواضع المشكلة ، وأتيت بوضوح الأدلة المستجمعة من الكتاب والسنة ونصوص الأئمة **فإن ذلك** أى ما ذكر من النوعين كله على ما فى نسخه « أى جميعه » **كلام الله تعالى** أى القديم **إخباراً عنهم** أى وفق ما قد كتب من الكلمات الدالة عليه فى اللوح المحفوظ قبل خلق السماء والأرض والروح ، لا بكلام حادث حصل بعد علم حادث عند سمعه من موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء ، ومن فرعون وإبليس وهامان وقارون وسائر الأعداء ، فإذاً لا فرق بين إخبار الله تعالى عن أخبارهم وأحوالهم وأسرارهم كسورة تبت وآية القتال ونحوها ، وبين إظهار الله تعالى من صفات ذاته وأفعاله وخلق مصنوعاته كآية الكرسى وسورة الإخلاص وأمثالها ، وبين الآيات الآفاقية والأنفسية فى كون كل منها كلامه وصفته الأقدسية الأنفسية ، ومجمل الكلام قوله على ما فى نسخة .

وكلام الله تعالى أى ما ينسب إليه سبحانه **غير مخلوق** أى ولا حادث **وكلام**

---

(١) المتوفى عام ٥٤٣ هـ .

موسى أى ولو كان مع ربه وغيره أى وكذا كلام غيره **من المخلوقين** أى كسائر الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين **مخلوق** أى حادث بعد كونهم مخلوقين **والقرآن كلام الله تعالى** أى بالحقيقة كما قال الطحاوى لا بالمجاز كما قال غيره ، لأن ما كان مجازاً يصح نفيه وهنا لا يصح ، وأجيب بأن الشرع إذا ورد بإطلاقه فيما يجب اعتقاده لا يصح نفيه **فهو قديم** كذاته **لا كلامهم** فإنه حادث مثلهم ، إذ النعت تابع لمنعوته ، وإنما يقال المنظوم العبرانى الذى هو التوراة ، المنظوم العربى الذى هو القرآن كلامه سبحانه ، لأن كلماتهما وآياتهما أدلة كلامه ، وعلامات مرامه ، ولأن مبدأ نظمهما من الله تعالى ، ألا ترى أنك إذا قرأت حديثًا من الأحاديث قلت هذا الذى قرأته وذكرته ليس قولى بل قول رسول الله ﷺ ، لأن مبدأ نظم ذلك القول من الرسول عليه السلام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ** ﴾ [البقرة: ٧٥] وقوله عز وجل : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ** ﴾ [التوبة: ٦] .

واعلم أن ما جاء فى كلام الإمام وغيره من علماء الأنام ، من تكفير القائل بخلق القرآن ، فمحمول على كفران النعمة لا كفر الخروج من الملة بخلاف المعتزلة فى هذه المسألة ، بل التحقيق أن لا نزاع فى هذه القضية إذ لا خلاف لأهل السنة فى حدوث الكلام اللفظى ، ولا نزاع للمعتزلة فى قدم الكلام النفسى لو ثبت عندهم بالدليل القطعى ، وأما حديث: « **من قال إن القرآن مخلوق فقد كفر** »(١) فغير ثابت ، مع أنه من الآحاد وقابل للتأويل فى بيان المراد ، والقول بأن المراد بالمخلوق المختلق بمعنى المفترى ، ومع هذا لا يجوز لأحد أن يقول: القرآن اللفظى مخلوق لما فيه من الإيهام المؤدى إلى الكفر ، وإن كان صحيحًا فى نفس الأمر باعتبار بعض إطلاقات القرآن ، فإنه يطلق على القراءة كقرآن الفجر ، ويطلق على المصحف كحديث : « **لا تسافروا بالقرآن فى أرض العدو** »(٢) ويطلق على

---

(١) سبق تخريجه : وهو باطل .

(٢)صحيح: أخرجه بنحوه مسلم فى الإمارة باب (٢٤) رقم (٩٤) وبلفظه الطحاوى فى مشكل=

المقروء خاصة وهو كلامه القديم ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل:٩٨] أى كلام الله، فإنه ذكر مع قرينة تدل على الحدوث كتحريم مس القرآن للمحدِث، فهو محمول على المصحف والقراءة ، فإذا ذكر مطلقًا يحمل على الصفة الأزلية ، فلا يجوز أن يقال : القرآن مخلوق على الإطلاق .

وسمع موسى كلام الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء:١٦٤] أتى بالمصدر المؤكد لدفع حمل الكلام على المجاز ، أى كلمه الله تكليمًا محققًا ، وأوقع له سماعًا مصدقًا ، والمعنى أن موسى عليه الصلاة والسلام سمع كلام رب الأرباب بلا واسطة إلا أنه من وراء الحجاب ، ولذا قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف:١٤٣] فى هذا الباب قال شارح : وكان يسمع الكلام من باطن الغمام الذى هو كالعمود وقد يغشاه الغمام ، وربما كان يسمع كلامه تعالى من باطن النار، أو بإرسال جبريل أو غيره من الملائكة ، انتهى . وفى الأخيرين نظر إذا لا يحصل بهما خصوصية له ولا مزية على غيره ، وأما ما قبله فلعله وقع له الكلام فى الأوقات المتعددة ، والأحوال المختلفة ، وإلا فالكلام الذى وقع له أولاً إنما كان كما أخبر سبحانه بأنه نودى من الشجرة المباركة التى ظنها أنها نار ، وإنما كانت معدن أنوار ، ومنبع أسرار ، ونتيجة إثمار وإسمار فى أسحار .

وقد كان الله تعالى متكلمًا أى فى الأزل **ولم يكن كلم موسى** أى والحال أنه لم يكن كلم موسى ، بل ولا خلق أصل موسى وعيسى .

وقد كان الله تعالى خالقًا فى الأزل ولم يخلق الخلق جملة حالية والمعنى أن الحق كان خالقًا قبل خلق الخلق ، وفى نسخة : « وكان الله خالقنا قبل أن يخلق حقيقة » بمعنى أن هذا النعت فيه محقق لا مجاز كما قال ابن أبى شريف إنه كان خالقًا بالقوة ، فإنه يوهم أنه تحت الإمكان واحتمال الوقوع واللاوقوع فى الأزمان، وليس الأمر كذلك ، فإنه كان خالقًا متحقق الوقوع فى وقت أراد فيه

= الآثار (٢/ ٣٦٩) والساعاتى فى بدائع المتن (١١٤٩) وأبو نعيم فى الحلية (٨/ ٢٦٥).

الشروع ، فتأخر متعلق الكلام ، والخلق من موسى عليه السلام وسائر الأنام لا يوجب نفى صحة الكلام ، وتحقق الخلق عن الحق عند العلماء الأعلام ، لأن كل شىء يكون فى القوة ثم يصير إلى الفعل فهو حادث ، إذ كل ممكن الوجود حادث كما صرحوا به ، وأيضًا فرق واضح ، وبون لائح ، بين ما هو قادر على الكتابة إلا أنه يؤخرها إلى وقت الإرادة ، وبين الكاتب بالقوة حيث أنه عاجز فى الحالة الراهنة ، وتحت الاحتمال فى الأزمنة الآتية .

والحاصل أنه سبحانه كما قال الطحاوى : ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارى ، فله معنى الربوبية ولا مربوب ، ومعنى الخالقية ولا مخلوق ، وكما أنه محيى الموتى بعدما أحيا استحق هذا الاسم بعد إحيائهم ، وكذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم ، ذلك بأنه على كل شىء قدير ، وإليه كل شىء فقير ، وكل أمر عليه يسير .

[﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى:١١] أى كذاته وصفاته ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى:١١] فقوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ رد على المشبهة ، وقوله : ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة .

وقد قال نعيم بن حماد الخزاعى شيخ البخارى : من شبه الله بخلقه أى ذاتًا وصفة فقد كفر ، ومن جحد ما وصف الله به نفسه أى من صفاته الذاتية والفعلية فقد كفر . وقال الطحاوى : ومن لم يتوق النفى والتشبيه زل ولم يصب التنزيه .

ثم من جملة ما قالوا فى قوله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ إنه أريد به المبالغة أى ليس لمثله مثل لو فرض المثل كيف ولا مثل له ، وقد علمت بالأدلة الشرعية والعقلية استحالة قيام الحوادث بذات الله الأزلية الأبدية ، فكلامه قديم ، وكذا صفة خلقه ، وأما متعلقاتهما فحادث فى وقت تعلق الإرادة بوقوعه وفى نسخة «كان الله متكلمًا » متأخر عن قوله : « وقد كان الله تعالى خالقًا » ، وعلى كل

تقدير فالجملة المتعلقة بالخلق اعتراضية للإشعار بأن خلق موسى حادث فى أثناء خلق الأنام فكيف مقامه فى مرام الكرام .

فلما كلم أى كما فى نسخة **موسى** والمعنى أراد تكليمه إياه **كلمه بكلامه الذى هو له صفة** أى قديمة ، وفى نسخة هو صفة له وفى نسخة هو من صفاته **فى الأزل** يعنى أنه كلمه بمضمون كلامه القديم الأزلى الأقدس ، كما نقش الكلمات الدالة عليه فى اللوح المحفوظ الأَنْفَس ، قبل خلق السماوات والأرض والأَنْفُس ، فكلمه على وفق تلك الكلمات المسطورة ، فتلك الكلمات المزبورة (١) ، والكلمات التى سمعها موسى عليه السلام من الشجرة المشهورة ، حادثة مخلوقة، إلا أنها أدلة كلامه الذى هو صفته الأزلية الحقيقية .

وقال شارح عقيدة الطحاوى : قول الإمام : فلما كلم موسى كلمه بكلامه الذى هو من صفاته يعلم أنه حين جاء كلمه لا أنه لم يزل ولا يزال أزلاً وأبداً يقول : يا موسى كما يفهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ** ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ففهم منه الرد على ما يقول من أصحابه أنه معنى واحد قائم بالنفس لا يتصور أنه يسمع ، وإنما يخلق الله الصوت فى الهواء كما قال أبو منصور الماتريدى، وقول الإمام : الذى هو من صفاته رد على من يقول : إنه حدث له وصف الكلام بعد أن لم يكن متكلمًا ، وبالجملة فكل ما يحتج به المعتزلة مما يدل على كلام متعلق بمشيئته وقدرته ، وأنه متكلم إذا شاء، وأنه يتكلم شيئًا بعد شىء ، فهو حق يجب قبوله، وما يقول به من يقول : إن كلام الله قائم بذاته وإنه صفة له ، والصفة لا تقوم إلا بالموصوف فهو حق يجب قبوله، والقول به فيجب الأخذ بما فى قول كل من الطائفتين من الصواب ، والعدول عما يرده الشرع والعقل من قول كل منهما وهذا فصل الخطاب .

(١) زبر الكتاب زبراً أى كتبه ، انظر المعجم الوجيز (ص ٢٨٥) .

وقد قال ﷺ : « **أعوذ بكلمات الله** »(١) وهو عليه الصلاة والسلام لم يتعوذ بمخلوق ، بل هو كقوله : « **أعوذ برضاك** »(٢) وقوله : « **أعوذ بعزة الله وقدرته** »(٣) وكثير من متأخرى الحنفية على أنه معنى واحد ، والتعدد والتكثّر والتجزّى والتبعّض فى الحاصل فى الدلالات لا فى المدلول ، وهذه العبارات مخلوقة ، وسميت كلام الله لدلالتها عليه وتأديته ، فإن عبر بالعربية فهو قرآن ، وإن عبر بالعبرانية فهو توراة ، فاختلفت العبارات لا الكلام ، قالوا : وتسمى هذه العبارات كلام الله مجازاً ، وهذا كلام فاسد ، فإنّ لازمه أن معنى قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ** ﴾[الإسراء: ٣٢] هو معنى قوله : ﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** ﴾[البقرة: ٤٣] ومعنى « آية الكرسى » هو معنى آية « المداينة » ومعنى سورة « الإخلاص » هو معنى سورة « تبت » ثم قال : ومن قال : إن المكتوب فى المصاحف عبارة عن كلام لله وليس فيها كلام الله ، فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة ، وكلام الطحاوى يرد من أنه متغير واحد لا يتصور سماعه منه ، وإن المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس بكلام الله وإنما هو عبارة ، فإن الطحاوى يقول : كلام الله منه بدأ بلا كيفية أى لا نعرف كيفية تكلمه به ، وكذا قال غيره من السلف : منه

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم فى الذكر والدعاء (٥٤ ، ٥٥) وأبو داود فى الطب باب (١٩) والترمذى (٣٤٣٧) وابن ماجه (٣٥١٨ ، ٣٥٤٧) وأحمد فى المسند (٥/ ٤٣٠، ٦/ ٣٧٧ ، ٤٠٩) وابن حبان فى صحيحه (٢٣٦٠) والبيهقى فى الكبرى (٥/ ٢٥٣) والخطيب فى تاريخه (١/ ٣٨٠ ، ٤/ ٩٤) .

(٢) صحيح : أخرجه مسلم فى الصلاة (٤٨٦) وأبو داود فى استفتاح الصلاة باب (٣٧) والترمذى (٣٤٩٣) والنسائى (١/ ١٠٢) وأحمد فى مسنده (٦/ ٥٨) والدارقطنى فى سننه (١/ ١٤٣) وابن خزيمة (٦٥٤) والطحاوى فى مشكل الآثار (١/ ٣٠) والحاكم فى المستدرك (١/ ٢٨٨) والبيهقى فى الكبرى (٢/ ١١٦) .

(٣) صحيح : أخرجه البخارى (٨/ ١٦٧ ، ٩/ ١٤٣) والطبرانى فى الكبير (١٩/ ٩٣) بنحوه .

openkanz.com

بدأ وإليه يعود ، وإنما قالوا منه بدأ لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون أنه خلق الكلام فى محل فقدر الكلام فى ذلك المحل ، فقال السلف : منه بدأ أى هو المتكلم به ، فمنه بدأ أى من بعض المخلوقات، كما قال : ﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾[فصلت: ٢] ومعنى قولهم : وإليه يعود أنه يرفع من الصدور والمصاحف كما ورد فى الأحاديث ، انتهى.

والأظهر عندى أن معنى إليه يعود: يرجع إليه علم تفصيل كيفية كلامه، وكنه حقيقة مرامه ، فإن سمع موسى كلامه لا يتصور أن يقال سمعه كله أو بعضه .

صفات الله تعالى لا تشابه صفات المخلوقين :

وصفاته فى نسخة : لم يزل صفاته **كلها** أى ونعوت البارى جميعها واقعة **بخلاف صفات المخلوقين** أى لا تشابه نعوتهم وإن وقع الاشتراك الاسمى فى صفات الحق ونعت الخلق ، من العلم والقدرة والرؤية والكلام والسمع ونحوه ، كما بينه بقوله : **يعلم** أى : « **الله تعالى** » كما فى نسخة : **لا كعلمنا** أى : معشر الخلق ، فإنا نعلم الأشياء بآلات ، وتصوّر صور حاصلات فى أذهاننا ، بقدر أفهامنا وإعلامنا ، والله تعالى يعلم حقائق الأشياء كلِّيها وجزئيها ، ظاهرها ومخفيها بعلم ذاتى صمدى أزلى أبدى **ويقدر** أى : سبحانه **لا كقدرتنا** لأن قدرته تعالى قديمة لا بآلة ولا بمشاركة ﴿ **وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[المائدة: ١٢٠] ونحن لا نقدر إلا على بعض الأشياء بالإقدار ، وذلك المقدار أيضًا بالآلات والأعوان والأنصار ، وأما هو سبحانه ففاعل مختار ، وقادر حكيم مدبر بقدرة واختيار .

ويرى أى هو لقوله سبحانه : ﴿ **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** ﴾[العلق: ١٤] **لا كرؤيتنا ويسمع لا كسمعنا** فإنا نرى الأشكال والألوان المختلفة ، ونسمع الأصوات والكلمات المؤتلفة ، بالآلات المخلوقة فى الأعضاء المركبة على وفق إبصاره لا بأبصارنا وإسماعه لا سماعنا ، كما ورد فى الدعاء : « **اللهم متعنا بأسماعنا**